جماليات الذكر والحذف لشبه الجملة في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية

The aesthetics of dhikr and the omission of the semi-sentence in the verbal similarity in the Holy Qur'an and its rhetorical secrets.

محمد شيباني*

جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف (الجزائر)، pr.chibani.ens@gmail.com

تاريخ الارسال٢٥/ ٠١/ ٢٠٢١ **تاريخ القبول** ٢٠٢١/٠٣/٢٣ **تاريخ النشر**٢٠٢١/٠٩/٢٧

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة الكشف عن جماليات الذكر والحذف لأشباه الجمل في الآيات القرآنية المتشابهة لفظيا، وإبراز مقاصدها البلاغية، ومعانيها الإعجازية؛ والسعي إلى إبراز أسباب الاختلاف الحاصل بين الآيتين المتشابهتين، ومظاهره، وبيان الغاية من ذلك؛ سواء من الناحية الشرعية أو الإعجازية أو البلاغية.

الكلمات المفتاحية: الذكر، الحذف، الجملة، المتشابه اللفظي، القرآن الكريم.

Abstract: This study aims to attempt to uncover the aesthetics of dhikr and omit the semi-sentences in the Qur'anic verses that are verbally similar, and highlight their rhetorical purposes and miraculous meanings. Seeking to highlight the reasons for the difference between the two similar verses, their manifestations, and the purpose thereof. Either from a legal, miraculous, or rhetorical standpoint.

Keywords: Dhikr, deletion, sentence, verbal similarity, the Holy Quran.

مقدمة:

إنّ من جماليّات التركيب القرآني التي تعدّ من دعائم إعجازه البياني: الذكر والحذف أو الإطناب والإيجاز، وهو من خصائص لغة الضاد التي نزل بها القرآن الكريم.

يقول الجرجانيّ رحمه الله في معرض حديثه عن الذكر والحذف مبيّنا مزاياه وسجاياه في النظم القرآني: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِنْ»[(١)].

* المؤلف المرسل

وقد حفل كلام العليم الخبير بالآيات المتشابهة التي تختلف من حيث الذكرُ والحذف، وفي مجملها اختلفت في ذكر الحرف وحذفه، وذكر الكلمة وحذفها، وذكر الجملة وحذفها.

وفي هذا الورقة البحثية أحاول كشف اللثام عن جماليات الذكر والحذف لأشباه الجمل في الآيات المتشابهة لفظيا، وإبراز مقاصدها البلاغية، ومعانيها الإعجازية؛ ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

على أنه ورد في الآيات المتشابهة لفظا، اختلاف في ذكر أشباه الجمل وحذفها، من ذلك؛ على سبيل المثال لا الحصر:

١- قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

جاءت آية الأعراف بزيادة الجارّ والمجرور "منهم"، بينما حذف في آية البقرة؛ ذلك أنّ آية البقرة سيقت مساق العموم، دون تقييد أو تخصيص، فيفهم منها أنّ المراد بالظالمين الذين ظلموا من المخاطبين بقوله: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾، أمّا آية الأعراف ففيها ما يقتضي زيادة شبه الجملة "منهم"، وهو ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. فلمّا بيّن سبحانه أنّ في قوم موسى أناسا صالحين، وأناسا ظالمين، زيدت "منهم"، حتّى ينصرف الكلام إلى الظلمة منهم، دون الصالحين المبرّئين من تهمة التغيير والتحريف والتبديل، المشار إليها في الآية.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الدرّة في بيانه لعلّة الحذف والزيادة في الآيتين، وتبعه خلق ممّن يعتدّ بقولهم، ويؤخذ برأيهم[٢].

على أنّ من لطائف صيغة العموم الواردة في البقرة، ما ذكره صاحب التحرير والتنوير، من أنّ البلاء إذا نزل بأمّة فإنّه لا يختصّ بالظالمين دون غيرهم، وإنّما يعمّ الصالحين أيضا، وهذا من سنن الله في تصريفه لشؤون الخليقة ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [٣].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡ ﴾ [الأنفال: ١٠].

بعد رصد كلام العلماء حول زيادة شبه الجملة "لكم" في آل عمران، وحذفها في الأنفال، تبيّن أنّه ينحصر في ثلاثة معانٍ هي:

أ- أنّ آية آل عمران «جاءت على الأصل، والثانية- آية الأنفال- قد تقدّمها "**لَكُمۡ**"، فأغنت عن إعادتها بلفظها ومعناها. وهي في قوله: ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٩]، فلمّا قال: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ ﴾، علم أنّه جعل بشرى لهم، فأغنت ﴿ لَكُمۡ ﴾ الأولى بلفظها ومعناها عن الثانية، وفي الآية الأولى، لم يتقدّم ما يقوم مثل هذا المقام، فأتى بقوله: ﴿ لَكُمۡ ﴾ على الأصل»[٤].

وهذا المعنى أورده الخطيب الإسكافي، ومن وافقه[٥].

ب- وهو التوجيه الذي انفرد به ابن الزبير، فيرى أنّ آية آل عمران تقدّمها ذكر للطائفتين: المؤمنة والكافرة، لقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، فلمّا «اختلط ذكر للطائفتين وضمّهما كلام واحد، جرّدت البشارة لمن هدي منهم، وأنّها لأولياء الله المؤمنين... فقيل: "بشرى لكم"... وأيضا فإنّ آية الأنفال قد تقدّم قبلها قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٧]، فأغنى عن عودته فيما بعده، اكتفاءً بما قد حصل، ممّا تقدّم من تخصيصهم بذلك»[٦].

جـ- «أنّ آية آل عمران سيقت مساق الامتنان والتذكير بنعمة النصر، في حين القلّة والضعف، فكان تقييد "بشرى" بأنّها لأجلهم: زيادة في المنّة، أي: جعل الله ذلك بشرى لأجلكم، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ ﴾ [الشرح: ١].

وأمّا آية الأنفال، فهي مسوقة مساق العتاب على كراهية الخروج إلى بدر، في أوّل الأمر، وعلى اختيار أن تكون الطائفة التي تلاقيهم غير ذات الشوكة، فجرّد "بشرى" عن أن يعلق به "لكم"، إذ كانت البشرى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ومن لم يتردّدوا من المسلمين»[٧].

والناظر بعين البصر والبصيرة إلى الآيتين ضمن سياقهما القرآنيّ، يدرك احتمالهما لهذه المعاني كلّها. ومن يدري؟ ! لعلّ معانيَ أخرى يتضمّنها السياق، لم تبلغها أفهامُنا بعد، فكلام الله لا تنقضي عجائبه، ولا تفنى عبره.

٣- قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣].

وقوله سبحانه: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: ٦].

حذف الجارّ والمجرور في الأولى، وأثبت في الثانية، وعمدة ما قيل في ذلك أنّ آية النساء ذكر فيها بعض أحكام الوضوء والتيمّم، فحسن الحذف، أمّا آية المائدة فقد ذكر فيها جميع أحكامها، فحسن الإثبات والبيان(٨).

٤- قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفتح: ١١].

فحذف الجارّ والمجرور: "لكم" بعد: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾، في آية المائدة وأثبت في آية الفتح. والسرّ في ذلك– وهو الذي عليه جميع العلماء(٩)– أنّ آية المائدة عامّة في المسيح وأمّه، ومن في الأرض جميعا، فليس هناك مخاطب خاصّ يحتاج فيه إلى زيادة ما يفهم منه التخصيص، فحسن الحذف، أمّا آية الفتح فهي في قوم مخصوصين، وهم الأعراب الذين تخلّفوا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، في عمرة الحديبيّة، فاحتيج فيها إلى زيادة "لكم"، لتخصيصهم بالخطاب.

٥- قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [هود: ٣١].

زيدت "لكم" في آية الأنعام، وحذفت من آية هود. وهذا لأنّ آية هود تقدّمها "لكم" مرّات عدّة، وذلك في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [هود: ٢٥]، وقوله: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود: ٢٧]، وبعدها: ﴿ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾، فلمّا تكرّر "لكم" في القصّة أربع مرّات، اكتفى بذلك، ولم يُذكَرْ ها هنا تخفيفا، ولم يتقدّم في الأنعام سوى مرّة واحدة، فحسن ذكره هناك.

وهذا المعنى يكاد يجمع عليه الباحثون في بيان أسرار المتشابه اللفظي في القرآن الكريم(١٠)؛ إلّا ما كان من ابن الزبير الذي أورد توجيها ما أراه إلّا بعيداً عن معنى الآيتين بعد الثريّا عن الثرى، وليته لم يسوّد صفحات كتابه بهذا التوجيه(١١)؛ فقد أبعد النجعة هذه المرّة حينما زعم أنّ آية هود وردت حكايةً لقول نوح عليه السلام لقومه، وما فيه من التلطّف والإشفاق عليهم، وإرادة الخير والنجاة والنجاح والفلاح لهم. وإلى هنا لا معترض عليه؛ فجميع الأنبياء عليهم السلام أرسلهم الله رحمة لأقوامهم الذين بعثوا فيهم، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام لله ربّ العالمين.

لكن الذي لا يقبله عاقل بأيّ حال من الأحوال، وصفه في مقابل ذلك لخطاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالتقريع والتعنيف والتوبيخ، مع أنّه مجبول على خلاف ذلك من الرحمة والرأفة والشفقة والحلم ولين الجانب، حتّى مع أعتى عتاة قريش، على حدّ قول ابن الزبير.

كيف !؟ وقد قال الله فيه: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فهو الرحمة المهداة لجميع الخلق؛ إنسهم وجنّهم، عربهم وعجمهم، مؤمنهم وكافرهم، حتّى الحيوانات والجمادات، أصابها من رحمة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مالا يتّسع المقام لبسطه.

ثمّ إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يلبث في دعوته بالمدينة إلّا بضع سنوات، حتّى دانت له العرب والعجم، ودخلوا في دين الله أفواجا، وبذلك أتمّ الله النعمة على هذه الأمّة، فله الحمد والمنّة.

فإن كان من توبيخ وتعنيف فالأولى أن يكون على قوم نوح عليه السلام، الذين لم يؤمن منهم إلا قليل، مع طول مكثه بينهم، قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: ١٤].

وممّا يفنّد مزاعم ابن الزبير، أنّه لم يؤثر عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه دعا على قومه، أو بعض منهم، بل كان يدعو لهم بالهداية، مع شدّة أذيّتهم له صلّى الله عليه وسلّم في بداية دعوته.

أمّا نوح عليه السلام، فقد ثبت دعاؤه على قومه بنصّ كتاب الله تعالى، في قوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: ٣٨]، وفي قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: ٢٤]، وفي قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧].

فقل لي بربّك بعد الذي علمت، أليس في دعاء نوح عليه السلام على قومه أشدّ من التقريع والتعنيف؟! اللهمّ بلى!.

وحرّم الله على النار عظمة لسان قالت: «نصف العلم لا أدري»[١٢].

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [يونس: ٧٤].

ففي الأولى حذف الجارّ والمجرور "به"، وفي الثانية أثبت وذكر.

وقد ورد توجيهان للآيتين في علّة ذلك متعاكسان متناقضان، أوّلهما توجيه للإسكافي وحزبه، وحاصله أنّ آية يونس عليه السلام عدّيت بالباء مناسبة لما تقدّمها في قصّة نوح عليه السلام ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، فعدّي﴿كَذَّبُواْ بِهِۦ﴾ بما عدّاه أوّلا ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أمّا آية الأعراف، فلم يتقدّم "التكذيب" متعدّيا بالباء، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم﴾، فناسبها الحذف(١٣).

وثانيهما توجيه ابن الزبير، فعلى العكس تماما من الأوّل، فيرى أنّ آية الأعراف تقدّمها ذكر للجارّ والمجرور، في قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ [الأعراف: ٨٧]، فلمّا ذكر التعدّي بالباء في قوله ﴿ءَامَنَ بِهِۦ﴾، ﴿بِٱلَّذِيٓ﴾، ﴿أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾، جاء قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ [الأعراف: ١٠١]، بالحذف اكتفاء بحصول المقصود بما تقدّم، وإحرازاً للإيجاز والبلاغة.

أمّا آية يونس «فإنّه لم يتقدّم هنا ما تقدّم هناك، فلم يكن بدّ من الإتيان بالضمير ﴿كَذَّبُواْ بِهِۦ﴾، ليحصل ما وقع من التكذيب، ولترتبط الصلة بالموصول»(١٤).

وأمام هذا التناقض والاختلاف، يقف اللبيب مستشعراً لعظمة القرآن، مردّداً قول الكريم المنّان، العظيم الشأن: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: ٧].

٧- قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠﴾ [الأعراف: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ٣٥﴾ [الشعراء: ٣٥].

حيث وردت آية الشعراء بزيادة شبه الجملة "بسحره"، وحذفت من آية الأعراف. ذلك– حسب الخطيب الإسكافي ومن وافقه(١٥)– أنّ آية الأعراف من كلام الملإ، وآية الشعراء من كلام فرعون، ولما كان فرعون أشدّ من الملإ في ردّ أمر موسى، وأعظمهم بغضا، وكراهة له، ولِما جاء به، صرّح بأنّه "سحر"، ويؤيّده ما جاء في سورة

طه، من إصرار فرعون على أنّه سحر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ ﴾ [طه: ٥٧]، قاصدا بذلك كلّه تنفير الناس عن متابعة موسى عليه السلام.

أمّا الملأ فلم يبلغوا مبلغ فرعون في إبطال ما جاء به موسى، ولم يغلظوا في الخطاب غلظه، فجاء قولهم مناسبا للحذف الوارد في الآية.

ولم أجد مخالفا لهذا التوجيه، وإن وجد فهو لا ينهض على ساق، لضعفه أمام ما تمّ تقريره، كمن علّل الحذف بالإيجاز والاختصار في آية الأعراف، دون أن يشفي عليلا أو يروي غليلا.

٨- قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الكهف: ٧٢].

وقوله سبحانه: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الكهف: ٧٥].

لقد تواطأ أهل العلم من المفسّرين واللغويين في بيان علّة زيادة "لك" في الآية الثانية، وحذفها من الأولى، على أنّ الخضر عليه السلام قصد بالأولى تذكير موسى عليه السلام بما شرط عليه في قوله: ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الكهف: ٧٠]، وقبوله للشرط بقوله: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الكهف: ٦٩]، فلمّا نسي موسى عليه السلام الشرط، ذكّره الخضر عليه السلام بلطف وأدب معه.

وفي الثانية كرّر موسى الإنكار على الخضر عليهما السلام، عند قتله للغلام، ولم يلتزم موسى بالشرط للمرّة الثانية، فشدّد الخضر عليه الإنكار، وأكّد القول بقوله: "لك"، لأنّ كاف الخطاب أبلغ في التنبيه والعتاب[١٦].

٩- قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة: ٢٠].

وردت آية الحج بزيادة شبه الجملة ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾، بينما حذفت من آية السجدة.

وفصل الخطاب في الآيتين أنّ المراد بالغمّ الكرب، والأخذ بالتعس حتّى لا يجد صاحبه متنفّسا، ولما تقدّم في آية الحجّ تفاصيل أنواع العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ ﴾ [الحج: ١٩ - ٢١]، فمن كان يتخبّط في شتّى ألوان العذاب، كيف يجد سرورا، أو يجد متنفّسا؟!، وما من وصف يليق به كما الغمّ، فزيد في آية الحجّ.

وكما بسط في ذكر أنواع العذاب، جيء بما يقابله، من بسط تفصيل أنواع نعيم الجنّة، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤ ﴾ [الحج: ٢٣ - ٢٤].

أمّا آية السجدة، فليس فيها سوى قوله تعالى: ﴿ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ مختصراً، فناسب ذلك حذف "من غمّ"، مراعاة للإيجاز الذي تميّزت به الآية، وكما أوجز في العذاب، أوجز أيضا في النعيم فقال: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾ [السجدة: ١٧] (١٧).

فجاءت الحروف في الكلمات، والكلمات في الجمل، والجمل في الآيات، والآيات في السور، بأبدع نظم، وأجمل نسق، وأدقّ لفظ، وأحكم نظام، أعجز البشر عن الإتيان بمثله.

١٠- قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٤٦ ﴾ [الروم: ٤٦].

وقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢ ﴾ [الجاثية: ١٢].

فحذف الجارّ والمجرور "فيه" من آية الروم، وأثبت في آية الجاثية.

وقد اتّفق علماء المتشابه في القرآن، على أنّ آية الروم حذف منها الجارّ والمجرور "فيه"، لأنّه لم يذكر في الآية المحلّ الذي تجري فيه الفلك، وهو البحر. فاكتفى بذكر الرياح المبشرة برحمة الله، والتي تُجري الفلك بأمر الله.

أمّا آية الجاثية فإنّه ذكر في صدرها البحر، وهو المحلّ الذي تجري فيه الفلك، فكان لزاما ذكر ما يعود عليه، وهو الضمير المتّصل بحرف الجر "فيه"، فيكون الكلام: لتجري الفلك في البحر. فجاء كلّ على ما يناسب(١٨).

ولم يشذّ عن إقرار هذا المعنى أحد، ممّن يعتدّ بقوله في هذا المجال. والله أعلم.

وهذا من أصحّ طرق التفسير عند السلف والخلف، وذلك أن يفسر القرآن بالقرآن؛ فما أُجمل في مكان فإنّه قد فسّر في موضع آخر، وما اختصر من مكان، فقد بسط في موضع آخر(١٩).

خاتمة:

هكذا يأتي القرآن في أعلى مستويات البلاغة، يفسّر بعضه بعضا، ويبيّن بعضه بعضا، ويؤيّد بعضه بعضا، ويصدّق بعضه بعضا، ويشهد بعضه لبعض، على نمط واحد، في علو الأسلوب والتعبير، وهدفٍ واحد من سموّ الهداية والتعليم، لا يضادّ شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلّها حقّ، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقا في الأخبار، وعدلا في الطلب(٢٠)، وهذا — من غير شكّ — هو سرّ عجز البشر عن الإتيان بمثله. أو ما يدانيه أسلوبا وبلاغة، وتصريفا في ضروب الكلام، وفنون القول.

ولتحقيق كلام الله تعالى غاية الهداية للخليقة جاءت آياته حافلة بالتنوع في الأساليب البلاغية؛ من ذكر وحذف، وتقديم وتأخير، وإجمال وتفصيل، وإطلاق وتقييد، وإبهام وتفسير وغيرها مما يجعله ذا قوة في التأثير في النفس البشرية الموصوفة بالجدل والخصومة والتمرد واللجاجة؛ وإلجائها إلى الاقتناع بالحقائق الواضحة والحجج الدامغة والبراهين الساطعة؛ في سكينة واطمئنان. والله تعالى أعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، والحمد لله من قبل ومن بعد.

الهوامش:

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تقديم: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢/ ٢٠٠٢، ص: ١٧٧.

(٢) ينظر:- الخطيب الإسكافي، درّة التنزيل وغرّة التأويل، تح: محمد مصطفى آيدين، ط١، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ١٤٣١/ ٢٠١٠، (١/ ٢٣٦، ٢٣٧).

– محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تح: عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٦/ ١٩٨٦، ص: ٣٠.

– ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تح: عبد الجواد خلف، ط١، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤١٠/ ١٩٩٠، ص: ٩٨.

– أبو يحيى الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، محمد علي الصابوني، ط٢، مكتبة رحاب، الجزائر، ١٤٠٨/ ١٩٨٨، ص: ٢٧.

(٣) ينظر: ابن عاشور التونسي، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، (٩/ ١٤٥). والآية من سورة: [الأحزاب: ٦٢].

(٤) الخطيب الإسكافي، درّة التنزيل وغرّة التأويل، (١/ ٣٧١).

(٥) ينظر: – محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: ٤٨.

– ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: ١٣٢.

– أبو يحيى الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: ٩٦.

(٦) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، تح: سعد الفلّاح، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٢٨/ ٢٠٠٧، (١/ ٣١٤، ٣١٥)، بتصرّف.

(٧) ابن عاشور التونسي، تفسير التحرير والتنوير، (٩/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٨) ينظر: – محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: ٥١، ٥٢.

– ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: ١٣٨.

– أبو يحيى الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: ١١٤، ١١٥.

(٩) ينظر: – الخطيب الإسكافي، درّة التنزيل وغرّة التأويل، (١/ ٤٢٣)، (٣/ ١١١٧، ١١١٨).

– محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: ١٧٦.

– ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (١/ ٣٨٢).

– ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: ١٤٧، ٣٤١.

(١٠) ينظر: – محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: ٦٤.

– ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: ١٦١، ١٦٢.

– أبو يحيى الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: ١٦٨.

(١١) ينظر: ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (١/ ٤٥٦، ٤٥٧).

(١٢) قلت: الأحرى بكلّ باحث في القرآن أن يدع التشدّق والتكلّف في الكلام، ويكتفي بتأثير القرآن في النفوس، وصنيعه في القلوب؛ فكفى به بيانا!! ولا يفهم منّي النهي عن تدبّر كلام الله العليّ، والتفكّر في آياته، وإنعام النظر فيها، واستخراج دُرره؛ ممّا يزيد المؤمن إيمانا، ويستبشر بذلك، ويزيد الذين في قلوبهم مرض رجسا إلى رجسهم، ويَشقَّون بذلك؛ بل هذا ممّا هو مطلوب في ديننا ومستحبّ، شرط أن يكون في حدود ما دلّ عليه الكتاب والسنة، بفهم سلف هذه الأمّة المشهود لهم بالخيرية. والله أعلم.

(١٣) ينظر: – الخطيب الإسكافي، درّة التنزيل وغرّة التأويل، (٢/ ٦٠٨، ٦٠٩).

– محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: ٧٩، ٨٠.

– ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: ١٨٤. أبو يحيى الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: ٢٠١.

– ابن عاشور التونسي، تفسير التحرير والتنوير، (٩/ ٣١).

(١٤) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (١/ ٥٥٧)، بتصرّف.

(١٥) ينظر: – الخطيب الإسكافي، درّة التنزيل وغرّة التأويل، (٢/ ٦١٧، ٦١٨).

– ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (١/ ٥٦٣، ٥٦٤).

– ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: ١٨٣.

– ابن عاشور التونسي، تفسير التحرير والتنوير، (١٩/ ١٢٤).

(١٦) ينظر: – الخطيب الإسكافي، درّة التنزيل وغرّة التأويل، (٢/ ٨٣٢، ٨٣٣).

– محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: ١٢٢.

– فخر الدين الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١١/ ١٩٩٠، (٢١/ ١٣١، ١٣٢).

– ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (٢/ ٧٩٠).

– ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: ٢٤٢.

– أبو يحي الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: ٣٤٦.

– محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٤/ ١٩٩٤، (١٥/ ٤٨٧)، (١٦/ ٣).

– ابن عاشور التونسي، تفسير التحرير والتنوير، (١٦/ ٥، ٦).

(١٧) للتوسّع أكثر، يرجع إلى: – الخطيب الإسكافي، درّة التنزيل وغرّة التأويل، (٢/ ٨٦٩، وما بعدها).

– محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: ١٣٢.

– ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (٢/ ٨٥٩).

– ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: ٢٦٢.

– أبو يحي الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: ٣٨١، ٣٨٢.

(١٨) لمزيد من التوضيح يرجع إلى: – الخطيب الإسكافي، درّة التنزيل وغرّة التأويل، (٢/ ٩٨٩، ٩٩٠).

– محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: ١٥٣.

– ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (٢/ ٩٤٠).

– ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: ٢٩٥.

– أبو يحي الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: ٤٤٤.

(١٩) ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المكتب التعليمي السعودي بالرباط، المغرب الأقصى، (١٣/ ٣٦٣).

(٢٠) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تقديم: عبد القادر الأرناؤوط، ط١، دار الفيحاء، دمشق، سورية، ١٤١٤/ ١٩٩٤، (٢/ ٦٧٠).